مع كتب التراث

أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه

للإمام أبي عبدالله محمد ابن إسحاق الفاكهي

أ. عبدالله بن حمد الحقيل

يحفل تاريخنا العربي الإسلامي بالمعارف والعلوم الخالدة .. ولا غرو فتراث الأمة هو عنوانها وصورتها وأصالتها ونهضة كل أمة لا تقوم إلا على أساس من فكر عميق ومستنير، وإن عظمة الأمم تقاس بتاريخها وعلمها .. وإن الحديث عن التراث وإحيائه لهو وفاء للماضي ودعم للمستقبل واستنباط العبرة منه لما يزخر به من معطيات حضارية ولعل من نافلة القول الإشارةُ إلى بيان قيمة التراث العربي الإسلامي إذ هو غني في نوعيته وكمه ويعدُّ في قمة الإنتاج الفكري وذروة العطاء العلمي رفعة ومجداً .. حيث أنه حافل بألوان من جوانب المعرفة

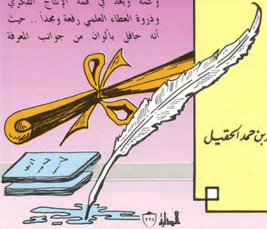

الإنسانية إلى جانب مصنفات الفقهاء وكتب المفسرين والمحدثين وكم أبدع أسلافنا من علوم ألفوا فيها كتباً لا تزال مصدر إشعاع في العالم حتى يومنا هذا برغم مرور القرون الطويلة عليها ..

فهناك نماذج من أمهات كتب الأدب واللغة كمؤلفات الثعالبي وابن جنى والنويري وابن قتيبة والقلقشندي والراغب الأصفهاني وابن النديم وياقوت .. وغيرهم وقد وجد هؤلاء قبل أن توجد المطابع .. فالمقريزي يذكر أنه كان في خزانة العزيز بالله أكثر من ثلاثين نسخة من تاريخ الطبري .. لقد كان أسلافنا ينسخون كتبهم بأيديهم فيروى عن أحد النحاة أنه كان يخرج في وقت العصر إلى سوق الكتب في بغداد فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب الفصيح لثعلب ويبيعه بعد ذلك بنصف دينار والروايات في هذا المجال كثيرة ومعروفة وطريفة ..

إن التراث العربي الإسلامي لا يقتصر على جانب واحد من جوانب المعرفة الإنسانية بل يمتد ليشمل كل فروع الحضارة والفكر والتاريخ واللغة الجغرافية والعلوم التطبيقية بشتى أنواعها وما زال جزء منه رهين الخزائن والرفوف والأقبية المعتمة يتطلع إلى من ينفض عنه الغبار ويخرجه إلى ساحات النور..

وفي هذا العصر وبفضل اختراع المطابع التي كانت عاملاً قوياً وفعالاً انتشرت الثقافة والمعرفة ومن ذلك كتب التراث بشكل سريع وفي أشكال وصور شتى .. ووصل إلينا الكثير من كتب التراث مطبوعة ومحققة وموثقة ..

لقد انتشرت مئات الكتب من أمهات كتب التراث في الأدب والدين والتاريخ واللغة واستمرت تلك المطابع في نشر طائفة من كتب التراث كان لها دورها وفعاليتها في نشر الوعي والمعرفة والفائدة .. وهو جهدٌ عظيمٌ وعمل كبير فمن يقرأ المخطوطات القديمة بعد تحقيقها ودراستها ووضع الفهارس والتعليقات والإضافات والهوامش لها على قدر طاقة محققيها وإمكاناتهم ليعجب كل العجب .. لقد كان لأولئك المحققين الرواد الفضل الكبير على المحققين والناشرين في العصر الحاضر .. فمن يطالع صبح الأعشى وكتاب الأغاني والقاموس المحيط وخزانة الأدب ولسان العرب وكتاب سيبويه وشرح الحماسة وغيرها من أمهات الكتب يدرك أن الدعوة إلى إحياء التراث هي عودة الأمة إلى أصالتها ومعرفة حضارتها وأمجادها ووعيها لمسئوليتها .. فهي دعوةٌ نبيلة في أهدافها ومفاهيمها، فقوة الأمة العربية الإسلامية في تراثها ودينها ولغتها وفكرها .. فالتراث هو الذي يكوِّن عقل الأمة وفكرها وشخصيتها .. إن المخطوطات العربية تحفل بتراث فكري يضم العلم والأدب، واللغة والعلوم الأخرى ودراسة التراث يفتح أذهاننا على أشياء كثيرة جاءت ووردت في التراث والمهم أن يصبح منشوراً ومنظماً ومنسقاً ليسهل للباحثين الرجوع إليه وذلك مهم جداً حين تتعاون مراكز التراث وتضع خطة شاملة تعمل بمقتضاها بحيث تحصر أماكن المخطوطات ويتم التبادل الفكري والتصوير لكل مخطوطة والعمل على نشر تلك المخطوطات نشراً علمياً محققاً يلتزم بالأمانة العلمية والدقة الموضوعية ..

ولقد تسلمت «الدارة» هدية ثمينة من لدن الأستاذ الفاضل عبد الملك بن عبد الله ابن دهيش تتمثل في تحقيقه ودراسته لكتاب أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه «تصنيف الإمام أبي عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهي» ويقع في ستة أجزاء وقد استمتعت كثيراً بما حواه من معرفة وفوائد .. فهو من الذخائر العلمية التي تعتز بها المكتبة السعودية بخاصة والعربية بعامة وقد وضع المحقق فهرساً عاماً اشتمل على فهرس الآيات القرآنية وفهرس أصحاب المهن وفهرس القبائل والأقوام وفهرس المواضع وفهرس الأشعار وفهرس المراجع وفهرس

الموضوعات .. وقد جاءت هذه الفهارس شاملة لما ذكره الفاكهي في كتابه من آيات وأحاديث ورواة وأعلام ومواضع وأشعار كما أفرد فهرساً خاصاً لأصحاب المهن الذين ذكرهم المؤلف بحيث يعطي للقارىء صورة عن تنظيم أسواق مكة المكرمة حرسها الله وعن مواضع هذه الأسواق ..

ولا شك أن أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه تستقطب اهتمام كل باحث وعالم ومحقق بل وكل فرد مسلم ..

والمحقق بنشره واهتمامه بهذا الكتاب يقدم ذخيرة من ذخائر التراث العربي الثمين فهو عمل يستحق عليه الشكر والتقدير وجدير بالإكبار والإعجاب فجزاه الله وغيره ممن يعنون بإحياء تراثنا الإسلامي الخالد ما هو جدير به من المثوبة والأجر الجزيل .. وما أكثر ما يحفل به تراثنا في مجالات العلم والأدب واللغة والتاريخ والاجتماع والرحلات وهي جميعها ما برحت في خزائن المخطوطات وتحتاج إلى جهود العلماء والباحثين ومن يتحملون الجهد والرغبة فتحية إلى الأستاذ عبد الملك بن دهيش وإلى جميع إخواننا المهتمين بالتراث العربي الخالد والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ..

البديع في وصف الربيع :

وكذلك أهدى الدارة مشكوراً الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان الأستاذ في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية نسخة من الكتاب الذي حققه وكتب الدراسة والتعليق عليه وهو الموسوم «البديع في وصف الربيع» تأليف أبي الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر ابن حبيب الحميري الأشبيلي المتوفى سنة ٤٤٠هـ ..

وقد أمضيت في صحبة هذا الكتاب وقتاً جميلاً وخاصة مع الأدب الأندلسي الذي تغنى به الأدباء وترنم به الشعراء وما حفلت به تلك الديار من مباهج الطبيعة ومفاتنها وقد برع الأندلسيون في تصوير مظاهر الجمال وبدائع الصور وقد جمع المؤلف في هذا الكتاب النفيس صوراً شعرية ونثرية لكوكبة من أدباء الأندلس فاختار أجمل أشعارهم وانتخب ما جادت به قرائحهم شعراً ونثراً ، ويقول المحقق في ثنايا تقديمه للكتاب «يعد هذا الكتاب مصدراً أساسياً لدارسي الأدب الأندلسي بصورة عامة وما يتعلق منه بوصف الطبيعة بصورة خاصة إذ يضع بين أيدينا روائع وبدائع من الوصف الذي تبرز منه ملامح جديدة

للإبداع والتجديد والابتكار في الشعر والنثر الأندلسي وهو منهل ثرى لمثل هذا اللون من الأدب وقد طرح المؤلف بعض الآراء والقضايا واللمحات النقدية ..

وقد بذل المحقق جهداً في تحقيق هذا الكتاب .. وقد اعتمد على نسخة من مكتبة الأسكوريال حيث أنها هي النسخة الوحيدة للكتاب .. كما عمل على تخريج ما ورد في الكتاب من مقطوعات شعرية ونثرية وأمثال وأقوال وذلك بالرجوع إلى المصادر لدى العلماء والمحققين كما ترجم للأعلام الذين يحتاجون إلى ترجمة من علماء وأدباء ووزراء وكتاب.

والدكتور العسيلان صاحب قلم متمرس بالكثير من قضايا الأدب والتراث وقد قام بتحقيق مجموعة من الكتب كحماسة أبي تمام وشروحها ومعانيها وكتاب البديع لابن المعتز ومعجم شعراء الحماسة وغيرها من البحوث والدراسات في النقد والأدب واللغة .. وهذا الكتاب في الواقع حافل بالكثير من الأشعار التي جاءت في الربيع والياسمين والبنفسج والورد والأقحوان والرمان .. فشكراً للمؤلف على هديته وتحية مفعمة بالتقدير ومزيداً من العطاء الفكري المفيد

والأمل معقود على الإخوة الباحثين بجامعاتنا في العناية بكتب التراث وجمعها وتحقيقها ونشرها على أوسع نطاق .. والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق.